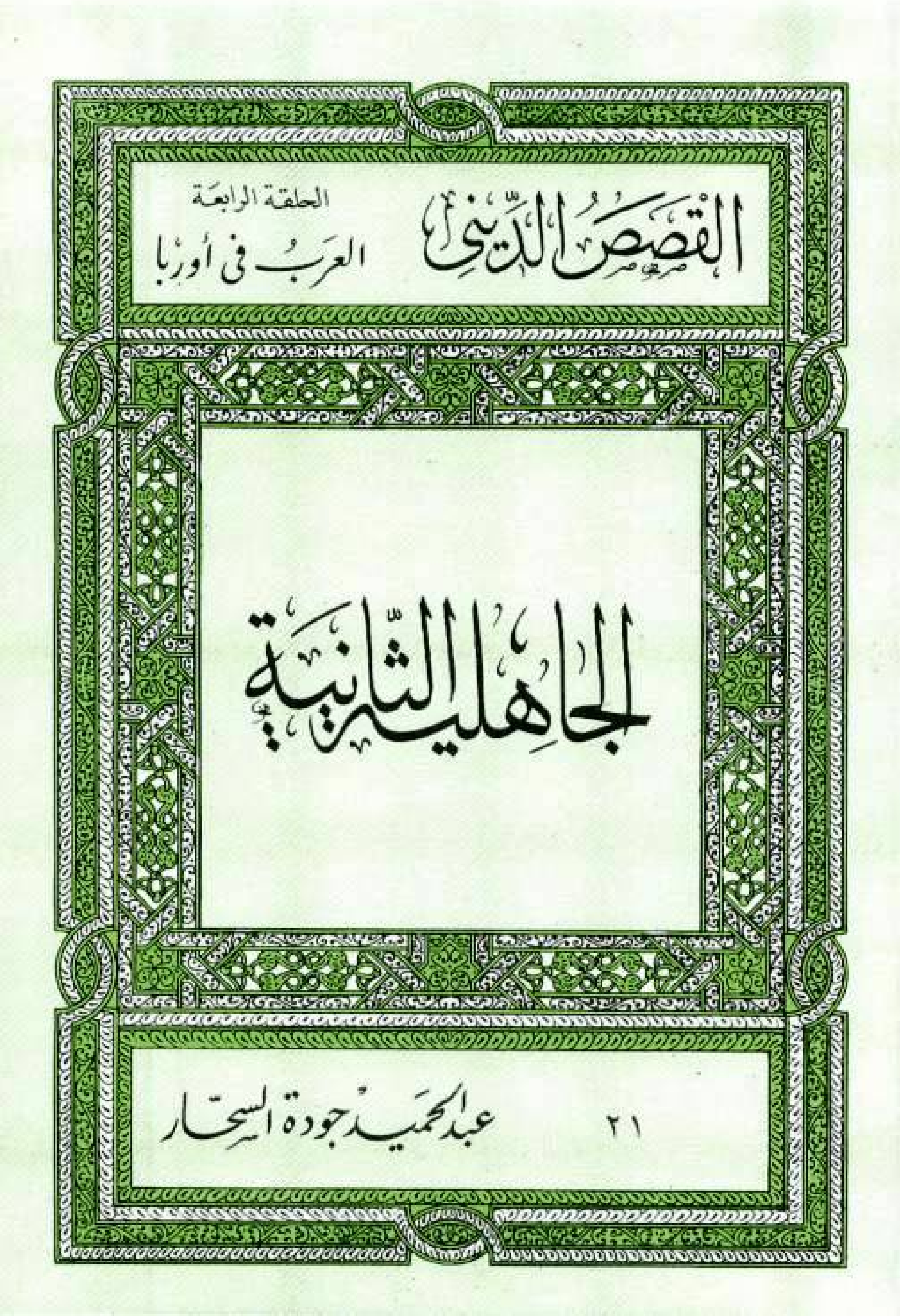


القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

الجاهلية الثانية

٢١

عبد الحميد جودة السحار

الجاهلية الثانية

١

نشَأتِ الفُروسيَّة وازدهرتْ فى الأندلس ؛ وكان الفَارسُ يتحلّى بالتّقوَى ، والشّجاعة ، ورِقّةَ الخِلال ، والقُوّة ، وقرضِ الشّعر ، والفَصاحة ، والبَراعةِ فى رُكوبِ الخيل ، واللّعبِ بالسّيفِ والرُّمحِ والقَوس ؛ وقد بلغتْ أوجَ عظَمتِها ، فى أيامِ المنصور بن أبى عامر . وقد أخذت أوربة نظام الفروسية ، الذى كان طابَعَ العصور الوسطى ، عن العرب ؛ وصارتِ الأندلُس فى عهد المنصور كعبة ، يقصِدُها فُرسانُ النّصارى ليُبارزوا فُرسانَ المُسلمين .

كانتِ السّيّداتُ يَحضُرنَ هذه المبارزات ، فكان يشيع فى هذه الحفلاتِ المُختلِطةِ الرِّقّةُ والطّراوة ،

وإن كان مَيداانُها ساحةً للدَّم والأهوال .

ومات المنصور ، وفرسان المسلمينَ فى عودتهم من غزوتِهم الموفّقَة ، وعلَمُ الإسلامِ خفّاق ؛ فقامَ بالأمرِ بعدَه ابنُه عبدُ الملكِ المُظفّر ، فجرى على سَنَنِ أبيه ، فى الحَجْر على الخليفةِ هِشام ، وفى غزو أطرافِ الأندلس ، ليستتبَّ الأمرُ للمسلمين .

ومرَّتْ سبعُ سنواتٍ كانت أعيادًا على الأندلُس ، مات بعدَها عبدُ الملك وكانت تُسَّمى بالسّابع ، تشبيها بسابع العَروس .

وقامَ بالأمرِ بعدَه أخوه عبدُ الرّحمن ، وكانت أمُّه بنتَ حنْسو (سانكو) ملكِ نافارْيا ، وقد تزوَّجَها المنصورُ بعد أن غزا بلادَها ؛ فشبَّ عبدُ الرَّحمنِ جريئًا على الدِّين ، ميَّالاً إلى اللَّهو والعَبث ، حتّى أُطلِقَ عليه سانكو الصَّغير .

واستقلَّ عبدُ الرَّحمنِ بالمُلكِ دونَ الخليفةِ المُؤيَّد ، وطلبَ من هِشَامٍ أن يوليهُ عهدَه ، فأجابَه وأحضَر

لذلك الملأ من أهلِ الشُّورى ، وأهلِ الحلِّ والعَقْد ، فكانَ يومًا مشهودا .

٢

خرج عبدُ الرَّحمنِ يغزو فى الصَّيفِ فى بلادِ الْجَلالقة ، مُتشبِّها بأبيهِ وأخيه . وفى أثناء اشتغالِه بالحرب ، اجتمعَ الأَمويُّونَ والقُرشيُّون فى قُرطبة ، وراحوا يتشاوَرون فى أمرِهم ، فنقموا على عبدِ الرَّحمنِ ما فعل ، وأسِفوا من خُروجِ الأمرِ من المُضَرِيَّةِ إلى اليَمنيَّة ، وعقَدوا العزمَ على أن يثوروا على عبدِ الرَّحمن .

ووثبوا بصاحب الشُّرطة فقتلوه ، وخلعو هشامًا الخليفة ، الَّذى قضتْ على شخصيَّتِه أمُّه صُبح ، يومَ فكَّرتْ فى أن تُدير سياسةَ الأندلُسِ من وراء سِتار ؛ وبايعوا محمَّدَ بنَ أبى هِشامِ بنِ عبدِ الجبَّارِ ابنِ أميرِ

المؤمنينَ النّاصر ، ولقّبوه المهدىَّ باللّه .

وطارَ الخبرُ إلى عبدِ الرّحمنِ وهو فى غزوتِه ، فانفضَّ عنه النّاس ، ولم يبقَ معه إلاّ بعضُ جندِه ، ووجوهُ البرْبَر ، فانطلقوا إلى قرطبة .

وعندَ أرباضِ المدينةِ ، انسلَّ الْجُندُ ووجوهُ البرْبَر ، ولم يبقَ إلاّ عبدُ الرّحمن وحدَه ، فقُتلَ واحتُزَّ رأسُه ، وحُمِل إلى المَهدىّ ، وبقتلِ عبدِ الرّحمن ، ذهبتْ دولةُ العامريّين .

ولحِق رؤساءُ البَرْبَرِ وزُناتَةَ بالمَهدِىّ ، الخليفةِ الجديد ، ولكنَّ الأمويّينَ لم ينسَوْا لهم أنّهم ظاهروا المنصورَ وأبناءَه ، فأُبغضوهم ، وراحوا يُؤَلّبونَ النّاس عليهم ، حتّى إنَّ العامةَ هجموا على دورهم ، ونهبوا ما بها .

وشكَوْا أمرَهم إلى المهدىّ ، فلم تنفعْ شكواهم ، فعقدوا العزمَ على خَلْعِ المهدىّ .

اجتمع رؤساءُ البربرِ وزَناتَةَ بهِشامِ بنِ سُليمان ،

ابن أميرِ المؤمنينَ النَّاصر ، وبايَعوه خليفةً للمُسلمين .
وقبل أن تتمَّ مُؤامرتُهم ذاعَ خَبرُها ، فهجم عليهم النَّاسُ وأجْلَوْهم عن قرطبة ، وقبضوا على هِشام وأخيه أبى بكر ، وأحضروهُما بين يدَى المَهدىّ ، فضربَ أعناقَهما .

٣

فرَّ سليمانُ ابنُ أخيهما ، واجتمَعَ بالبَربَر خارجَ قُرطبة ، فبايَعوه ولقَّبوه المُستعينَ باللّه ، وانطلقوا به إلى طُليطُلَة ، واستعانوا ابنَ أذفُونشْ ، فأسرَعَ بالانضمامِ إليهم ، لا حُبًّا فيهم ، بل لأنَّه وجَد الفُرصةَ سانحةً للتّخلُّصِ من العربِ جميعا .

انضمَّ جيشُ أذفُونشَ إلى جيشِ البَربَر ، وسارتِ الجُيوشُ إلى قُرطُبة ، والتحمَتْ بجيوشِ المهدىّ ، ودارتْ معركةٌ رهِيبةٌ بين المسلمينَ والمسلمين ، سقَطَ فيها قتلى عِشرونَ ألفًا من زهرةِ شبابِ الأندلُس ، وانهزَمَ المهدىّ ، ودخَلَ المُستَعِينُ قُرطبة ، سنةَ أربَع مائةٍ من هجرةِ الرَّسول .

وذهب المهدىُّ إلى طليطلة ، واستعان بابنِ أذفونش ، استعانَ بعدوِّه الذى حاربَه مع المستعين ،

فزَحف معه إلى قُرطبة ، وهزموا المستعين والبربرَ وأصحابَهم ، ودخلَ المهدىُّ قُرطبة ، وملكَها ثانية .

وتَفرَّقَ المُستَعينُ والبَربرُ فى الأرض ، ينهَبونَ ولا يُبقُونَ على أحد ، ثمَّ ارتَحلُوا إلى الجزيرةِ الخضراء ، فخرجَ المهدىُّ وحليفُه ابنُ أذفُونشَ لقتالِهم ، فكرُّوا عليهم وانهَزَمَ المهدىُّ وابنُ أذفونش ومن معهما من المسلمينَ والنَّصارَى ، ودخلَ المستَعينُ قرطبةَ ثانية .

ورأى المستعينُ أن يقضىَ على هذه الفِتنةِ المُندَلِعة ، التى تُهَدِّدُ بقاءَ الإِسلامِ فى الأندلس ، فأخرجَ هشاما ، الخليفةَ القديم ، الذى حَجَرَ عليه المنصور ؛ وبايعَ له ، وقام بأمرِ حِجابَتِه .

وقَتَلَ أهلُ القَصرِ المهدىّ ، وصار هِشامٌ أميرَ المؤمنين . ولكنَّ المستَعِينَ لم يُصبِح حاجبَه ورئيسَ وُزرائِه ، بل قامَ واضِحٌ العُمَرىُّ بحِجابَتِه .

ورأى المُستَعينُ أنَّ الأمرَ قد أفلَتَ من يدِه ، فبَعثَ

إلى ابنِ أذفونش ، يطلب منه عَونَـه فى قِتالِ هِشام وحاجبِه واضح العُمَرى . وأرادَ هِشامٌ أن ينقُضَ تدبيرَ المستَعين ، فأرسَلَ إلى ابنِ أذفُونشَ يطلبُ منه أن يكفَّ عن مُناصرةِ المُستَعين ، على أن يُسلِّم إليه حصونَ قشتالة وقِلاعَها ، التى كان المنصورُ قد افتتحَها من بلاده . ووافَقَ ابنُ أذفونش ، وخرجَ المسلمونَ من حُصُونِهم وقِلاعِهم ، طائِعينَ مختارين .

وعلِمَ المستَعينُ بذلك ، فأسرَعَ إلى البربرِ أعداءِ الأَمويِّين ، وقَلَّبَهم على هِشام ؛ فخرجَ جيشٌ منهم إلى قرطبة ، ودخلُوها عَنوةً ونَهبُوها ؛ وتولَّى البَربَرُ الأعمال ، واستقلُّوا بالبلاد .

٤

قُتِلَ هِشامٌ سِرًّا ، وظَنَّ المستَعِينُ أن قَدِ استَحْكَمَ أمرُه ؛ ولكنَّ البَربَرَ والعَبيدَ استولَوا على البِلاد ،

فتولّى باديسُ بنُ حَبُّوسَ أمرَ غَرناطَة ، والبرزالِيُّ أمرَ قَرمُونَة ، واليَفرَنيُّ أمرَ رُندَة ، وخَزْدونُ في شَريشٍ ، وافترقَ شملُ الجماعةِ بالأندلس ، وصارَ المُلكُ طوائِفَ في آخَرينَ من أهلِ الدَّولة ، مثلِ ابنِ عِبادٍ بأشبيلية ، وابنِ الأفْطَسِ بِبَطَلْيُوس ، وابنِ ذي النُّون بطُليطُلة ، وابنِ عامر ببلنْسِيَة ، وابنِ هُودٍ بسَرَقُسطَة ، ومُجاهِدِ العامريّ بدانيةَ والجزائر .

وفَقَدَ عربُ الأندَلُسِ حَماسةَ جدودِهم ، التي كانتِ الدَّافعَ الأوَّلَ للجِهاد ، ولم يَعُد عربُ الأندَلُسِ يُهدِّدُونَ فَرنسا ، بل استكانُوا وصارُوا غَرَضًا لغاراتِ أورُبَّة ، التي أصبحَت كلُّها تَدينُ بالدِّينِ المسيحيّ .

لقدِ انغمسَ عربُ الأندَلُسِ في المَلذَّات ، حتّى صَغُرَت أحلامهم ونَقُصَت عُقُولُهم ، وصارتْ نفوسُهم وضيعة ، وبعُدوا من البأسِ والفُروسيَّةِ والبَسالَةِ ولقاءِ الرِّجال ، ومِراسِ الأنجادِ والأبطال .

وصار أهلُ فرنسا يشُنّونَ الغـارات على سواحلِ أسبانيا الإسلاميَّة ، ويَختطِفونَ مَراكِبَهم من كلِّ جهةٍ ولا غِياثَ لهم ولا ناصر ، فالملِك فيهم حقيرٌ ذليل ، والعالِمُ لا هَمَّ له إلاّ جمعُ المال ، يسرق ولا يشبع ، والتّاجر فاجر ، والرَّعِيَّة استكانت للذُّلِّ والهَوان .

٥

ورثَ ملوكُ الطَّوائِـفِ مُلكَ بنـى أُميَّـة ، وشـادُوا دُوَلَهم الصَّغيرةَ فى المدنِ والثُّغورِ الأندَلُسـيَّة ، وراح كـلٌّ منهـم يكيـدُ للآخَـرِ ويُحارِبُـه ، فانقَسَـمَ عـربُ الأندلُسِ شِيَعًا وطوائِفَ مُتَنـابذينَ مُتناحِرين ، وراحَ كلُّ فريقٍ يستعينُ فى حَربِ الفَريقِ الآخرِ بالنَّصـارَى من أهـلِ البـلادِ المُحتلَّـة ، فكـان ذلـكَ بـدءَ توهـينِ الإسلامِ فى الأندَلُـس ، وخضـدِ شَوكَتِه ، وارتِفـاعِ شأنِ الأسبانِّيين .

واشتدَّ لهيبُ هذه العَداوَةِ الطَّائِشَـةِ بيـنَ الإمـاراتِ الشَّمالية ، التى استقرَّ فيها بنو هُود فيما بين بَلَنسِيَةَ وسَرَقُسطَة . كان المقتدِرُ بن هُود ، أميرُ سَرَقُسـطة ، لا هـمَّ لـه إلاَّ سـحقُ أخيـه المُظَفَّـر ، أمـيرِ لارِدَة ، فاستعانَ علـى حربـه بالنَّفاريِّين (البشـكنس) حتـى

ظَفِرَ به أخيرًا وسَجنَه .

وتُوفِّيَ المقتدرُ بعدَ أن قسَمَ مُلكَهُ الصَّغيرَ بينَ ولدَيه ، فَخَصَّ المؤتمنَ بسرَقُسطَةَ وأعمالِها ، وأخاهُ المنذِرَ بدانيَةَ وطَرطُوشَةَ ولارِدَة . ودبَّ الخِلافُ بين الأَخوَين ، واندَلَعَ لهيبُ الحربِ الأهلِيَّةِ بينَ المسلمين ، فاستعانَ المنذِرُ بسانكو ملكِ أرجون ، وكونتِ برشلونة ؛ وخرجَ نفرٌ من أنصارِ المظفَّر بنِ هُودٍ على المؤتمن ، نُصرةً لأميرِهم ؛ واستنجَدَ المظفَّر في سجنِه بملكِ قَشتالة ، فأرسَلَ جيوشَه لقتالِ المؤتمن ؛ ولكنَّ المظفَّر مات في سجنِه ، فنامتِ الفِتنة إلى حِين .

وكانت بلنسِيَةُ فريسةَ الاضطرابِ والفَوضَى ، فاستولَى عليها حفيدُ المنصور ، ثمَّ خَلَفَه ابنُه المظفَّر ، ولكنَّ صِهْرَه المأمونَ بنَ ذى النُّون ، صاحبَ طُلَيطُلَةَ ، خلَعهُ وأسَرَه ، وضمَّ بَلنسِيَةَ إلى أعمالِ طُليطُلة .

وكان القادِرُ الذى جاء عقِبَ وفاةِ المأمون ، ضعيفا ، فخرجَ عليه حاكمُ بَلَنسيةَ أبو بكر ابنُ عبدِ العزيز ، حفيدُ المنصور ، واستقلَّ بحكمِها ، واحتمى بأذفُونْش (ألفونسو السادس) ، وتعهَّدَ له بجزْيَةٍ سنويَّة ، ولكنَّ أذفونشَ لم يقبل هذه الجزية ، لأنَّ القادِرَ اشترى منه بَلَنسِيَةَ بمالٍ وفير .

وراحَ أذفُونْشُ يستنزِفُ أموالَ القادِر ، حتى عجزَ عن إمدادِه بما يطلب منه ، فأرسَلَ له جيشًا حاصره فى طُلَيطُلة . ولمَّا كان القادِرُ خائِرَ العزيمة ، خاوِىَ الخزينة ، فقد نزلَ على شروطِ أذفونْشَ مُضطرًّا ، فَسلَّمه طُليطُلة ، على أن يفتتِحَ له أذفونْشُ بَلَنسِيَة ، ويُسلِمَهُ مَقالِيدَها .

ودخلَ أذفُونْشُ طُليطُلة ، وبدخولِه إليها ذهبتْ دولة ذى النُّون ، وانهارَ حِصنٌ من حصونِ الإِسلام فى الأندَلُس .

تَلَفَّتَ حفيدُ المنصور ، صاحِبُ بَلَنسِيَة ، عن عضَدٍ يحتمي به ، فلم يجد غيرَ المؤتمن ، صاحبِ سَرَقُسْطَة ، فراحَ يتقَرَّبُ إليه ، ويُرسِلُ الرُّسل ، وكانت له ابنةٌ جميلة ، فسعى حتّى زوَّجَها من المُستعينِ بنِ المؤتمن ، وكانت حفلاتُ الزِّفافِ آيةً فى الرَّوعةِ والبَذَخ .

ومات حفيدُ المنصور ، فدبَّ الخِلافُ بين ولَدَيه ، ورأى القادرُ بنُ ذى النُّونِ الفُرصَةَ مواتِيةً لتحقيقِ أمنيَتِه ، فَزَحَفَ إلى بَلَنْسِيَة ، يؤيِّدُه فى زحفِه جيشُ أذفُونْش ، وخَشِيَ أهلَ بَلَنسِيَةَ مَغَبَّةَ القتال ، فسلَّموا المدينةَ دونَ حرب ، وعاثَ جنودُ أذفُونشَ فى المدينةِ فسادا ، واشتدَّ الكربُ بالمسلمين .

وكان الأمرُ قد استتَبَّ فى المغربِ ليوسُفَ ابنِ تاشَفِين ، أميرِ الُمرابِطين ، فعزَمَ أن يسيرَ إلى

الأندَلُس نُصرةً لأُمَرائِه ، وحِمايةً للإِسلامِ الذى زعزعتِ النُّفرةُ والعداوةُ والبَغضاءُ الواقِعةُ بين الأُمراءِ أركانَه ، وهدَّدتْه بالزَّوال .

كانَ المُرابِطُونَ يجتَمعونَ أوَّلَ أمرِهم برِباط ، بصحراءِ مُرَّاكِش ، يعبُدونَ اللّه ، فاجتَمعَ عليهم أناسٌ كثيرون ، وظهرَ أمرُ المُرابِطين ، واشتَهرُوا بدينِهم وتقشُّفِهم ، فأرسَلَ مسلمو الأندَلُسِ إلى أميرِهم يوسفَ يستصرِخونَه ، فخفَّ لنجدَتِهم ، تأييدًا للإِسلام ، وتوطِيدًا لدعائِمه .

وعَبَرَ يوسُفُ بنُ تاشَفِينَ إلى الأندَلُس ، فخفَّ أذفُونْشُ للقائِه فى جموع لا تُحصَى من جنودِه ، والتقتْ جيوشُ يوسُفَ وجيوشُ أذفونشَ فى الزَّلَّاقة ، فانهزَمَ جيشُ أذفونْش ، وانتصرَ جيشُ يوسف ، وانتعشَ ملوكُ الطَّوائِف إلى حين .